الاستلزام الحواري في شعر الدعابة العباسي (أبو دلامة نموذجا)

فاطمه فرض اله ايوب بوران فكر
جامعة الزهراء-عليها السلام-للبنات
كلية التربية/ اللغة العربية
Researcher's name: Fatemeh Farzollah Ayoub Pouranfekr
Al-Zahraa University for women/Faculty of Education-Arabic Language Department
fatemeh.farzollah@alzahraa.edu.iq

الملخص:
عمد هذا البحث إلى مقاربة تجليات الاستلزام الحواري في شعر ابن دلامة، من خلال مقاربة تداولية تستند إلى نظرية غرايس في مبادئ التخاطب. ويستند إلى فرضية مفادها أن الدعابة في شعره ليست تعبيرًا فنيًا عفويًا، بل استراتيجية تواصلية واعية تقوم على خرق مقصود لمبدأ التعاون، مما يفضي إلى إنتاج دلالات ضمنية تتجاوز ظاهر الخطاب. وقد اعتمد البحث تحليلًا نوعيًا لنماذج مختارة من شعره، مبيّنًا كيف يسهم خرق مبادئ الكيف والملاءمة والكم والأسلوب في إنتاج أنماط متعددة من الاستلزام الحواري، في سياق طلب العفو أو العطاء، والاستلزام الاحتجاجي في التعبير غير المباشر عن الرفض، والاستلزام النقدي الساخر في تصوير الممارسات السياسية والاجتماعية. يكشف شعر ابن دلامة عن وعي تداولي بطبيعة المقام السلطوي، حيث يتبدل التلميح إلى أداة بديلة عن التصريح، بما يحقق توازنا بين النقد والمحافظة على أدب المخاطبة. ويعزز ذلك فاعلية المنهج التداولي في إعادة قراءة الشعر العباسي قراءة علمية تبرز أبعاده المقصدية.

الكلمات المفتاحية: الاستلزام الحواري ،التداولية ، مبادئ غرايس ، شعر الدعابة ، ابن دلامة، خرق مبدأ التعاون

Abstract:
This study aims to examine the manifestations of conversational implicature in the poetry of Ibn Dlamah through a pragmatic approach grounded in Grice's theory of communicative principles. The research is based on the hypothesis that humor in his poetry is not merely an artistic or spontaneous expression but a deliberate communicative strategy that intentionally flouts the cooperative principle, thereby generating implicit meanings that extend beyond the surface of the discourse. The study employs a qualitative analysis of selected poetic examples, illustrating how the flouting of the maxims of quantity, quality, relevance, and manner produces multiple patterns of conversational implicature. These patterns appear in contexts such as requests for pardon or favor, inferences of indirect refusal, and critical-satirical implicatures depicting political and social practices. Ibn Dlamah's poetry reveals a pragmatic awareness of the authoritative context, where suggestion becomes a substitute for direct expression, achieving a balance between critique and adherence to the norms of discourse etiquette. This demonstrates the effectiveness of a pragmatic approach in re-reading Abbasid poetry, highlighting its intentional and communicative dimensions.

Keywords: Conversational implicature, pragmatics, Gricean maxims, humorous poetry, Ibn Dlamah, flouting the cooperative principle

المقدّمة:
عرفت الدراسات اللسانية تحوّلا نوعيًّا مع بروز التداولية بوصفها حقلًا معرفيًّا يركز على دراسة اللغة في الاستعمال، ويعنى بالعلاقة بين القول وسياقه، وبين المتكلم والمخاطَب ضمن شروط التخاطب المختلفة. وقد شكلت نظرية الاستلزام الحواري عند بول غرايس منعطفا مهمّا في هذا الإطار إذ بينت أن المعنى لا يُستمدّ من البنية اللغوية وحدها، بل يتولّد كذلك من خرقٍ مقصود لمبادئ التعاون، مما يؤدي إلى إنتاج دلالات ضمنية تتجاوز ظاهر النص.

وانطلاقا من هذا التصور التداولي، يعد الشعر العربي القديم، ولا سيما شعر الدعابة في العصر العباسي، مجالًا خصبًا للكشف عن آليات إنتاج المعنى غير المباشر. ويغدو شعر ابن دلامة نموذجًا مميّزًا في هذا السياق؛ إذ يرتكز خطابه على المفارقة الساخرة، والاحتجاج غير المصرَّح به، واستراتيجية التلميح بدل التصريح، ولا سيما في مقام مخاطبة السلطة السياسية. ومن هنا تتجلّى أهمية دراسته تداوليًا، لأن مظهره لدعابي يخفي نسقا مقصديا واعيا، يعتمد على وعي المتلقي بالسياق وبالمنطلقات الفكرية.

يستند هذا البحث من إشكالية مفادها: كيف يتجلّى الاستلزام الحواري في شعر ابن دلامة؟ وهل يمكن قراءة الدعابة فيه بوصفها استراتيجية تداولية واعية تقوم على خرقٍ مقصود لمبادئ التخاطب؟ ويقوم البحث على تحليل نماذج مختارة من شعره في ضوء مبادئ غرايس (الكم، والكيف، والملاءمة، والأسلوب)، للكشف عن طبيعة المعاني الضمنية المتولّدة، وتحديد وظائفها التواصلية في سياق العلاقة بين الشاعر والسلطة.

وتتجلى أهمية هذا البحث في كونه يجمع بين التراث البلاغي العربي والمنهج التداولي الحديث، بما يسهم في إعادة قراءة النصوص التراثية قراءة علمية معاصرة، تكشف عن عمقها الدلالي، وتبرهن على أن ظواهر مثل السخرية والدعابة لم تكن مجرد نزوع فني، بل هي أداة تواصلية محكومة بقوانين السياق ومقتضيات المقام.

وأيضا هذا البحث لا يهدف إلى تحليل البنية الأسلوبية فحسب، يسعى أيضًا إلى الكشف عن البعد المقصدي في شعر ابن دلامة، وإثبات أن الاستلزام الحواري يشكّل آلية مركزية في بناء خطابه، بما يمنحه قدرة على النقد والاستعطاف والاحتجاج ضمن حدود المقبول في المجتمع العباسي.

المبحث الأول : الإطار التداولي للاستلزام الحواري والدعابة

ورد في تعريف الاستلزام الحواري بأنه :إبراز ما يقال وما يقصد قوله، فما يقال هو ما تعنيه الكلمات والعبارات بحولتها اللفظية، وما يقصد هو ما يريد المبلغ أن يبلغه للمتلقي على نحو غير مباشر، اعتمادا على أن السامع قد يصل إلى مراد المتكلم بما يتاح له من أعراف الاستعمال ووسائل الاستدلال[1].

نظرية الاستلزام الحواري هي بكيفية الاستعمال اللغوي أرسى دعائمها (غرايس gris) وأقامها على مبدأ عام يقضي بتعاون المتخاطبين بهدف تحقيق الفعالية القصوى لتبادل المعلومات، ومفادها، وقد قامت هذه النظرية على افتراض مجموعة من القواعد الصادرة على اعتبارات عقلية تجعل من السلوك اللغوي فعلا ناجحا، وتساعد على رصد الاستلزام التخاطبي (أو الحواري) باعتباره خرقا مقصودا لقاعدة من القواعد[2].

صاغ جرايس هذا المبدأ أثناء محاضراته في جامعة هارفرد عام 1967م، إذ تناول فيها النظرية غير الطبيعية وكيفية استخدام الناس للغة[3].

تكمن أهمية الاستلزام الحواري في أنّه "يتيح للمتخاطبين في حواراتهم عددا معينا من القواعد الضمنية اللازمة في أثناء تواصلهم ، وأنه في حالة ما إذا وقع خلل في تلك القواعد فإن عملية التواصل لن تتحقق"[4].

اقترح تداوليون مفهوم الاستلزام الحواري الذي هو "عمل المعنى، أو لزوم الشيء عن طريق قول شيء آخر ، أو قل إنه شيء يعنيه المتكلم ويوحي به ويقترحه ، ولا يكون جزءا مما تعنيه الجملة بصورة حرفية"[5].

يعتقد غرايس أن الجملة تحمل معنى ضمني ممكن تحديده من خلال السياق الذي وردت فيه و غرايس سمى هذه الظاهرة الاستلزام الحواري (نظرية التخاطب أو الاقتضاء ، وحدد القواعد والمبادئ لمبدأ التعاون الذي هو مطلوب من قبل طرفي الخطاب، وأي خرق لتلك القوانين يؤدي إلى اختلال المعنى، وهذه القواعد تتمثل في أربع قواعد، وهي :[6]

الكمية (الكم) quantity: قدم قدر المطلوب من المعلومات، لا أكثر ولا أقل، تتعلق هذه القاعدة بمقدار المعلومات وكمها، لا بصدقها أو ملائمتها.

الصدق (الكيف) quality: كم صادقا، لا تقدم معلومات خاطئة، أو معلومات لا تستطيع أن تبرهن على صحتها منجاة.

الملاءمة relation: لتكن معلوماتك، ومساهماتك ملائمة للحوار ، فلا تخرج عن الموضوع.

الطريقة manner: كن واضحا ومنظما، وتجنب الغموض والرطانة، وخاطب الناس على قدر عقولهم ، و تخصصاتهم ، وخلفياتهم المعرفية.

واهتمامه بالمعنى جعله يقسم المعنى إلى قسمين:

الأول: المعنى الطبيعي : (Natural meaning)
الثاني : المعنى غير الطبيعي: (non-natural meaning)
فالقسم الأول تدل فيه الجملة أو الكلام على المعنى المباشر الحقيقي، دون الحاجة إلى أي استنباط عقلي أو البحث عن إثبات واستنتاج لفهم معنى آخر مثلاً الدخان يدل على النار، أما المعنى غير الطبيعي أو غير الحقيقي ويقوم على تلك الاستدلالات التي يطلق عليها " المقتضيات "(implicature)[7] . فالجملة تدل على موضوع أو فكرة يمكن استنباطها وفهمها واثباتها، وترتكز على القصد (intention) ، واقترح "غرايس " تعريفاً للدلالة غير الطبيعية بقوله: "أن نقول أن القائل قصد شيئاً ما من خلال جملة معينة، ذلك يعني أنّ هذا القائل كان ينوي وهو يتلفظ بهذه الجملة إيقاع التأثير في مخاطبه بفضل فهم هذا المخاطب لنيته"[8].
إن الانتقال من المعنى الصريح إلى المعنى المستلزم (المضمر، الضمني، غير صريح...) يتم حسب غرايس بخرق أحد مبادئ التعاون في الحوار، وهذا ما عبر عنها غرايس بالاستلزام الحواري (عملية الخرق) "وهو مستوى من مستويات توليد الدلالة، حيث يتمكن المتكلم عبره من تضمين مجموعة من المعاني، ويقوم المستمع باشتقاقها اعتمادا على بعض القرائن اللفظية والمقامية، والمعارف المشتركة بين المتكلم والمستمع"[9].
يشترط غرايس لتحقيق الاستلزام الحواري أن يأخذ المتكلم بعين الاعتبار المعطيات الآتية[10]:

1. المعنى الحرفي للكلمات المستعملة، وتعريف العبارات الإحالية.
2. السياق اللغوي وغير اللغوي للخطاب .
3. عناصر أخرى تتصل بالخلفية المعرفية.
4. يجب على المساهمين في الحوار أن يكون على علم بالمعطيات الآنفة الذكر، وأن يصدر أثناء عملية التحاور عن افتراض المعطيات.

وأما الدعابة هو المزاح ، "المزاح نقيض الجد، قال الأزهري المزاح من الخارجون من طبع الثقلاء المتميزون من طبع البغضاء"[11].
"تعرف نقديا بأنها" نوع من التأليف أو الخطاب الثقافي الذي يقوم على أساس الانتقاد للرذائل والحماقات والنقائص الإنسانية، الفردية منها والجمعية، كما لو كانت عملية الرصد أو المراقبة لها تجري هنا من خلال وسائل وأساليب خاصة في التهكم عليها، أو التقليل من قدرها، أو جعلها مثيرة للضحك، أو غير ذلك من الأساليب التي يكون الهدف من ورائها محاولة التخلص من بعض الخصال أو الخصائص السلبية"[12].
فإن هؤلاء الشعراء يرون أن " الادب رؤية فنية رمزية للحياة أجمل ما فيه أن يقول ما لا تقوله الحياة بمبشرتها وعفويتها"[13].
التهكم والسخرية والفكاهة هي "واجهة وظاهرة تخفي خلفها كثيرا مما يستتر ولا تراه الاعين المجردة في المجتمع، والفكاهة ليست مجرد ضحكة عابرة تمر سريعا وتنسى، إنما هي في الواقع تعبير مكثف وسريع يخفي حقائق اجتماعية وسياسية وفكرية حفل بها ذلك المجتمع الزاخر المتفتح على شتى الثقافات التي تصارعت فيها مذاهبها واتجاهاتها وانعكست على طبيعة علاقاته ومفاهيمه"[14].
" إنّ بعض أنواع التهكم تدخل في أساليب الفكاهة التي تعتمد السخرية تجاه الذات أو تجاه الآخرين . ومبعث التهكم هو الرغبة في نقد العيوب الجسدية والنفسية والاجتماعية والسياسية، بهدف الإصلاح وتقويم الاعوجاج، ولا سبيل أجدى من الفكاهة المتهكمة في علاج الانحرافات ، والعادات السيئة والأخلاق الرديئة، لأنها تحضّ على المرونة في الطباع والأخلاق والأعمال، والبعد عن التصلب والجمود والتخلف"[15].
الجوانب السياسية والاقتصادية والاجتماعية أيضا كانت لها دور في نشر الفكاهة ، فلذا أولى الخلفاء العباسيون اهتمامًا كبيرًا بشؤون البلاد الاقتصادية وبذلوا جهودًا كثيرة في تنمية موارد البلاد في الزراعة والصناعة والتجارية وغيرها، فضلا إلى مواردها التي تقبض بالأموال من الضرائب والخراج، فعاش الخلفاء العباسيين حياة قائمة على البذخ والترف بينما كان عامة المجتمع يعانون من الجوع والفقر، فكان لا يجتمعان على باب الخليفة من العلماء والشعراء والفقراء والقضاة والكتاب فكان يمنحوهم من الأموال وما يرفعهم إلى أعلى الدرجات في طبقات المجتمع[16].

المبحث الثاني: تجليات الاستلزام الحواري في شعر أبي دلامة

يتخلى أبو دلامة عن الخطاب المباشر إذ يخزل متلقيه بنبرة تهكمية لاذعة تخزل حجم خيبة الأمل[17].

وَكُنَّا نَرْجِي مِنْ إِمَامٍ زِيَادَةً
فَزَادَ الإِمَامُ المُصْطَفَى فِي القَلَانِسِ
تَرَاهَا عَلَى هَامِ الرِّجَالِ كَأَنَّهَا
دِنَانٌ يَهُودٍ جُلِّلَتْ بِالبَرَانِسِ

يخاطب الشاعر السلطة حينما الناس يطلبون منه زيادة العطاء والأموال، فلذا يوظف الشاعر المفارقة و يضمن خيبة الأمل من زيادة العطاء و يخبر عن زيادة (قلانس) ، ويخرق مبدأ الملاءمة حينما ينتقل من طلب الزيادة إلى الزيادة في (القلانس) والطلب لا يلاءم النتيجة . ثم يخرق مبدأ الكيف عبر التشبيه (كأنها دنان يهود جللت بالبرانس) وفي هذا التصوير يبالغ الشاعر في الدعابة والمبالغة تكشف بأن الكلام ليس مدحا بل هو نقد سياسي عن احتياجات الناس التي لم تتحقق. ثم يخرق مبدأ الكم حينما يحول الخطاب إلى مشهد تهكمي ويضخم السخرية بدلا من حل المشكلة وهكذا جعل المتلقي يستنتج النتيجة بنفسه وهذا ينسجم مع الاستلزام الحواري عند غرايس إذ يخرق المبدأ ويطلب تعاون المتكلم ويبحث المتلقي عن معنى ضمني و يصل المتلقي إلى النقد الضمني .

ولم يتوقف أبو دلامة عند هذا الحد، بل يسعى في توليد الدلالات الاستلزامية في موضع آخر[18]:

لعَلِيّ بْنِ صَالِحِ بْنِ عَلِيٍّ
حَسَبٌ لَوْ يُعِينُهُ بِسَمَاحِ
وَمَوَاعِيدُهُ الرِّيَاحُ فَهَلْ أَنْـ
ـتَ بِكَفَّيْكَ قَابِضٌ لِلرِّيَاحِ
وبنو صالح كثير ولكن
ولنا في عديدهم من صلاح

الشاعر يوجه البيت إلى شخصية ذات مكانة عالية ويثنى الشاعر على الحسب والسماح والكم، في ضمن الكلام يشك الشاعر في صدق المواعيد عند هذه الشخصية. إذ يشبه المواعيد بالرياح وعدم الثبات فلذا المتلقي يدرك بأن المدح ليس حقيقيا بالكامل بل هناك وعود كثيرة لم تتحقق. يخرق الشاعر مبدأ الملاءمة حين يسئل عن قبض الرياح وهذا السؤال الاستنكاري ليس له جواب . وبهذه الطريقة يلمح الشاعر على كيفية اعتماده على هذه الوعود . كذلك يخرق مبدا الأسلوب ويصنع الإيحاء حينما يحفظ على أدب المخاطبة ويبقى العتاب حاضراً في بيته .

ويقول في موضع آخر[19] : (من الكامل)

هَاتِيكَ وَالِدَتِي عَجُوزٌ هَمُّهَا
مِثْلُ البَلِيَّةِ دِرْعُهَافِي المِشْجَبِ
مَهْزُولَةُ اللَّحْيَيْنِ مَنْ يَرَاهَا يَقُلْ
أَبْصَرْتُ غُولًا أَوْ خِيَالَ القُطْرُبِ
مَا إِنْ تَرَكْتَ لَهَا وَلَا لِابْنٍ لَهَا
مَالًا يُؤَمِّلُ غَيْرَ بَكْرٍ أَجْرَبِ
وَدَجَاجًا خَمْسًا يَرُحْنَ إِلَيْهِمُ
لَمَّا يَبِضْنَ وَغَيْرَ عَيْرٍ مُغْرَبِ
كَتَبُوا إِلَيَّ صَحِيفَةً مَطْبُوعَةً
جَعَلُوا عَلَيْهَا طِينَةً كَالعَقْرَبِ
فَعَلِمْتُ أَنَّ الشَّرَّ عِنْدَ فِكَاكِهَا
فَفَكَكْتُهَاعَنْ مِثْلِ رِيحِ الجَوْرَبِ
وَإِذَا شَبِيهٌ بِالأَفَاعِي رُفِّشَتْ
يُوعِدْنَنِي بِتَلَمُّظٍ وَتَثَوُّبِ
يَشْكُونَ أَنَّ الجُوعَ أَهْلَكَ بَعْضَهُمْ
لَزَبًا فَهَلْ لَكَ فِي عِيَالٍ لَزَّبِ
لَا يَسْأَلُونَكَ غَيْرَ طَلِّ سَحَابَةٍ
تَغْشَاهُمُ مِنْ سَيْلِكَ المُتَحَلِّبِ
يَا بَاذِلَ الخَيْرَاتِ يَا بْنَ بَذُولِهَا
وَابْنَ الكِرَامِ وَكُلِّ قَوْمٍ مُنْجِبِ
أَنْتُمْ بَنُو العَبَّاسِ يَعْلَمُ أَنَّكُمْ
قَدْمًا فَوَارِسُ كُلِّ يَوْمٍ أَشْهَبِ
أَحْلَاسُ خَيْلِ اللَّهِ وَهْيَ مُغِيرَةٌ
يَخْرُجْنَ مِنْ خَلَلِ الغُبَارِ الأَكْهَبِ

يتظاهر الشاعر في هذه الأبيات بوصف فقره وصفا هزليا مبالغا فيه ، ولكن القصد الحقيقي من هذه الأبيات هو طلب العطاء من الممدوح العباسي ومن هنا ينشأ الاستلزام الحواري حينما يريد معنى غير مصرح به. والشاعر يستعمل السخرية لإيصال رسالة ضمنية وهي شدة الفقر والحاجة كأن يريد الشاعر أن يقول للمخاطب (حالتي بلغت من السوء فلذا أحتاج وأستوجب المساعدة) وهذا هو مبدأ الكيف عنده . ثم يفرط في ذكر التفاصيل تمهيدا لطلب المساعدة وهنا يخرق مبدأ الكم عندما يتحدث عن (الدجاج، البكر الأجرب، رسالة مختومة، وصور الأفاعي...) .

ثم يدخل إلى مدح بني العباس فجأة وتوقع الاستجابة منهم بعد أن رأوا حاله وهذا التحول يجعل القارئ يرى النص السابق تمهيدا لما كان يقصده وهنا يخرق الشاعر مبدأ الملاءمة ويبني الدعابة .

كذلك استعمال الشاعر التعابير غير المألوفة التي تصد بهم الإضحاك يقوي خرق مبدأ الأسلوب وهكذا يجعل طلبه غير مباشر. فلذا المبالغة الساخرة خرق مبدأ الكم والكيف والأسلوب والملاءمة لطلب العطاء عبر الدعابة وهكذا يمنح النص البعد التداولي.

يتحول الاستلزام الحواري من مجرد أداة للتهكم إلى وسيلة النجاة داخل السياق السلطوي[20]:

يَقُولُ لِيَ الأَمِيرُ بِغَيْرِ جُرْمٍ
تَقَدَّمْ حِينَ جَدَّ بِنَا المِرَاسُ
فَمَا لِي إِنْ أَطَعْتُكَ مِنْ حَيَاةٍ
أَوِ مَا لِي غَيْرَ هَذَا الرَّأْسِ رَأْسُ

يحجج الشاعر بشكل غير مباشر ويمنح الباحث الفرصة للبحث عم الاستلزام الحواري المبني على المفارقة، حينما ظاهر الكلام يدل على إطاعة الأمير، لكنه يحمل معنى الاعتراض وباطن النص يبين خوف الشاعر من الهلاك.

في السياق السلطوي ، يخاطب الشاعر أميرا يأمره بالتقدم (تقدم حين جد بنا المراس) ، ولكن لا يمكن رفض الأمير بشكل صريح ، فلذا يلجأ الشاعر إلى الخطاب يحمل معنى ضمنياً. هذا الاعتراض يعرض الشاعر إلى الموت في حين يرفضه صريحاً، فجعل الوصف مفتاحا تأويليا مفتوحا للاستلزام كله.

كذلك يخرق النص مبدأ الملاءمة حينما يسئل عن الحياة والرأس بدل من الرفض المباشر. يخرج السؤال عن الطاعة العسكرية ويولد استلزام حينما يكون الأمر أن الطاعة هنا ساخرة وهذه يكشفه عن طريق السؤال الاستنكاري الذي يلمح إلى رفض الأمير كأن يريد أن يطلب من الأمير إعادة النظر في الأمر دون أن يواجه السلطة مباشرتًا. ويعد هذا الاستفهام فعل كلامي غير مباشر وهنا يخفف شدة الاعتراض وكذلك حفاظا على مبدأ التأديب مع السلطة، فقلب المعايير الأخلاقية السائدة بالمنطق وأسلوب الدعابة.

ثم يقول في موقف آخر[21] :

امِيرَ المُؤْمِنِينَ فِدَتْكَ نَفْسِي
عَلَامَ حَبَسْتَنِي وَخَرِقْتَ سَاجِي
أَمِنْ صَهْبَاءَ رِيحُ المِسْكِ فِيهَا
تَرَقْرَقُ فِي الإِنَاءِ لَدَى المِزَاجِ
عُقَارٌ مِثْلُ عَيْنِ الدِّيكِ صِرْفٌ
كَأَنَّ شُعَاعَهَا لَهَبُ السِّرَاجِ
وَقَدْ طُبِخَتْ بِنَارِ اللَّهِ حَتَّى
لَقَدْ صَارَتْ مِنَ النُّطَفِ النِّضَاجِ
تَهَشُّ لَهَا القُلُوبُ وَتَشْتَهِيهَا
إِذَا بَرَزَتْ تَرَقْرَقُ فِي الزُّجَاجِ
أُقَادُ إِلَى السُّجُونِ بِغَيْرِ جُرْمٍ
كَأَنِّي بَعْضُ عُمَّالِ الخَرَاجِ
وَلَوْ مَعَهُمْ حُبِسْتُ لَكَانَ سَهْلًا
وَلَكِنِّي حُبِسْتُ مَعَ الدَّجَاجِ
دَجَاجَاتٌ يَطِفْنَ بِهِنَّ دِيكٌ
يُنَاجِي بِالصِّيَاحِ إِذَا يُنَاجِي
وَقَدْ كَانَتْ تُخَبِّرُنِي ذُنُوبِي
بِأَنِّي مِنْ عِقَابِكَ غَيْرُ نَاجِي
عَلَى أَنِّي وَإِنْ لَاقَيْتُ شَرًّا
لَخَيْرُكَ بَعْدَ ذَاكَ الشَّرِّ رَاجِي

يوجه الشاعر الخليفة والمتلقي عنده يمتلك السلطة و الشاعر يستعمل الأسلوب غير المباشر لذا رجع أبو دلامة إلى أسلوب الدعابة ليخفف حدة الشكوى و طلب العفو بشكل ضمني، وهذا المعنى الضمني يبني السياق التداولي. ويخرق مبدأ الملاءمة ويولد الاستلزام مع ذكر الخمر في الخطاب الرسمي للخليفة وهذا الأمر غير مناسب ظاهريا، و هذا الموضوع يجعل المتلقي يبحث عن معنى آخر ويقصد بوصف الخمر طبيعة الخمر ومرونته ليبرر نفسه ويستدعي العفو من الخليفة حينما يقول : (أمن صهباء ريح المسك فيها عقار مثل عين الديك صرف) . ثم يخرق مبدأ الكيف عن طريق المبالغة الساخرة في الوصف ليخفف العقوبة عن طريق الحديث عن الخمر. ثم يخرق مبدأ الكم حينما يطول الكلام عن الخمر (ولكني حبست مع الدجاج) يفصل الشاعر في التمهيد قبل عرض المشكلة ويتبدل السجن عنده إلى حالة من الشفقة ولا الاحتجاج.

كذلك يخرق مبدأ الأسلوب حينما يصور صورة غير رسمية في مقام سياسي ويشبه الحيوان بالإنسان وعن التشبيه يطلب العفو من الخليفة يصغر معاناته لجذب الخليفة ، (دجاجات يطيف بهن ديك)

ثم يظهر المعنى الضمني الذي كان يتحدث عنه من بداية القصيدة، في البيت الأخير (لخيرك بعد ذاك الشر راجي)

واستعمل الشاعر هذه الاستراتيجية لطلب العفو دون أن يصرح مباشرتاً.

في موضع آخر، تأخذ تجليات الاستلزام الحواري عند أبي دلامة منحىً شديد الجرأة [22]:

أَلَم تَرَيَا أنَّ الخَلِيفَةَ لَزَّني
بِمَسجِدِهِ والقَصرِ ما لِي ولِلقَصر
فَقَد صَدَّني عَن مَسجِدٍ أستَلِذُّهُ
أُعَلَّلُ فيه بالسَّمَاعِ وبالخَمر
وكَلَّفَني الأولى جميعاً وعَصرَها
فَويلي من الأُولى وعَولي مِنَ العَصرِ
أُصلّيهما بالكُرهِ في غَيرِ مَسجدي
فما لي مِنَ الأولى ولا العَصرِ مِن أَجر
يُكَلِّفُني مِن بعدِ ما شِبتُ تَوبَةً
يحطُّ بها عَنّي المثاقِيلَ مِن وِزرِي
لَقَد كان في قومي مَسَاجِدُ جَمَّةٌ
وَلَم يَنشَرِح يَوماً لِغِشيَانِها صَدري
ووالله ما لي نِيَّةٌ في صلاته
ولا البِرُّ والإحسانُ والخَيرُ مِن أمري
وَمَا ضَرَّهُ واللهُ يغفِرُ ذَنبَهُ
لَوَ انّ ذُنوبَ العَالَمينَ على ظَهرِي

يوجه الشاعر الخطاب إلى الخليفة و غير ممكن الخطاب المباشر تداولياً بسبب وجود سياق سلطوي ، لذلك أبو دلامة يعتمد على الدعابة والمفارقة الساخرة ليولد استلزاماً حوارياً.

والمعنى الظاهري إلزام أبي دلامة بالصلاة والمعنى الضمني طلب تخفيف عنه وطلب العطف عليه عبر الدعابة. فلذا يخرق الشاعر مبدأ الملاءمة حينما يقول: (أَلَم تَرَيَا أنَّ الخَلِيفَةَ لَزَّني بِمَسجِدِهِ والقَصرِ ما لي ولِلقَصر) نلاحظ أن الشاعر يشتكي عن الخليفة بشكل علني وهذا غير ملائم تداولياً ولكن يدرك القارئ أن هذا ليس الشكوى بشكل حرفي . وأما الخطاب يقدم صورة ساخرة عن نفسه ليخفف الخليفة عنه . ثم يخرق مبدأ الكيف في قول : (ووالله ما لي نية في صلاته ولا البر والإحسان والخير من أمري) يصرح الشاعر في عدم قبوله الخير . ووفق مبدأ غرايس القول غير الصادق يدل على الشاعر نفسه ويريد به إضحاك الخليفة لا إقرار بعقيدته حقيقية.

ثم يخرق مبدأ الكم حينما يفرط في ذكر الشكوى ويبالغ في الخطاب إذ يتحول الخطاب إلى المشهد الكوميدي. ويقع الاستلزام هنا في عدم اعتراض الشاعر على صلاة الخليفة بل على ثقلها عليه لأنه شخصية دعابية معروفة.

وفي خرق مبدأ الأسلوب ينتج الشاعر الدعابة حينما يخرج عن المألوف في المدح (أصليهما بالكره) ، لذا يجعل القارئ يقرأ النص قراءة غير حرفية.

الخاتمة:

يتضح من خلال هذا البحث أن شعر ابن دلامة يُعدّ مجالًا خصبًا لتطبيق نظرية الاستلزام الحواري في بعدها التداولي، نظرًا لاعتماده على توظيف واعٍ وللسخرية والتلميح غير المباشر. فقد أظهرت القراءة التحليلية أن الشاعر لا يكتفي بإنتاج خطاب دعابي سطحي، بل يبني شبكة دلالية عميقة تقوم على خرقٍ مقصود لمبادئ التخاطب عند غرايس، ولا سيما مبدأي الكيف والملاءمة، بما يفضي إلى توليد معانٍ ضمنية تتجاوز الخطاب السطحي.

واتضح أن الاستلزام الحواري في شعر ابن دلامة يتخذ أنماطًا متعددة؛ فهناك الاستلزام الاستعطافي الذي يتوسل الدعابة لطلب العفو أو العطاء، والاستلزام النقدي الساخر الذي يكشف عن خلل سياسي أو اجتماعي دون مواجهة صريحة والاستلزام الاحتجاجي الذي يعبّر عن الاعتراض بطريقة غير مباشرة. وفي جميع هذه الأنماط، يعتمد الشاعر على وعي المتلقي بالسياق الاجتماعي والسلطوي.

كما أثبت الدراسة أن الدعابة عند ابن دلامة ليست خروجًا عن الجدية بقدر ما هي استراتيجية تواصلية دقيقة، تحافظ على أدب المخاطبة وتجنّب الشاعر التصريح المباشر، مع إبقاء الرسالة النقدية فاعلة في ذهن المتلقي. وبهذا المعنى، فإن شعره يمثّل نموذجًا مبكرًا لتجليات التداولية في التراث العربي، حيث يتجسد المعنى في التفاعل بين القول والسياق، لا في البنية اللغوية وحدها.

ويمكن القول إن تطبيق نظرية الاستلزام الحواري على شعر ابن دلامة لا يكشف عن أبعاد جديدة في شعر الدعابة العباسي فحسب، بل يؤكد كذلك صلاحية المنهج التداولي لقراءة النصوص التراثية قراءة علمية معاصرة، تُبرز عمقها الدلالي وتعيد توظيفها ضمن أطر تحليلية حديثة.

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم

الكتب:

1. أحمد عادل عبد المولى، أصداء الخطاب ، بحوث تطبيقية في المقارنة الأدبية ، دار النابغة للنشروالتوزيع ، ط1، 2017م.
2. الاستلزام الحواري في الدرس اللساني ، العياشي ادواري، منشورات الاختلاف ، دار الأمان ، الرباط ، ط1، 2011م .
3. بهاء الدين محمد مزيد ، تبسيط التداولية، شمس للنشر والتوزيع، القاهرة، ط2، 2010م.
4. التداولية اليوم علم جديد في التواصل، آن روبول وجاك موشلار ، تر: سيف الدين دعفوس ومحمد الشيباني، دار الطليعة للطباعة والنشر، ط1، بيروت/ لبنان ، 2003م. الاستلزام الحواري دراسة تأصيلية ، عصام راضي حسون ، إشراف : جاسم عبد الواحد راهي ، جامعة كربلاء ، كلية العلوم الاسلامية ، العدد 35 ، آذار 2023م: 260
5. حافظ إسماعيل علوي، التداوليات (علم استعمال اللغة) عالم الكتب الحديث، أربد/ أردن، ط1، 2014م.
6. ديوان أبي دلامة : تحقيق: إميل بديل يعقوب ، بيروت ، دار الجيل، ط1، 1994م.
7. رياض قزيحة، قدم وراجع له : ياسين الأيوبي ، الفكاهة والضحك في التراث العربي المشرقي من العصر الجاهلي إلى نهاية العصر العباسي، المكتبة المصرية ، صيدا/ بيروت، شركة أبناء شريف الأنصاري للطباعة والنشر والتوزيع، 1426ه/2006م.
8. شاكر عبد الحميد، الفكاهة والضحك رؤية جديدة، سلسلة عالم المعرفة، عدد 289، يناير 2003 .
9. صادق المهدي ،الفكاهة ليست عبثا، 2006م.
10. عادل فاخوري، محاضرات في فلسفة اللغة، دار الكتاب الجديد المتحدة، ليبيا/ بنغازي ،ط1، 2013م.
11. عياشي أدواري، الاستلزام الحواري في التداول اللساني، دار الأمان ، الرباط ، ط1، 1432ه/ 2011م .
12. فيليب بلانشيه، التداولية من اوستين إلى غوفمان، تر: صابر الحباشة، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية-السورية، 2007م.
13. ليلى كادة، المكون التداولي في النظرية اللسانية العربية ظاهرة الاستلزام التخاطبي نموذجا، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في علوم اللسان العربي، إشراف د: بلقاسم دفة ، جامعة الحاج لخضر، باتنة، د ت .
14. محمود أحمد نحلة ، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجديدة، مصر ، 2002م.
15. مصطفى البشير قط، مجالس الأدب في قصور الخلفاء، دار اليازوري العلمية، 2016م.
16. وديعة طه النجم، الفكاهة في الأدب العباسي ، عالم الفكر ، المجلد 13، العدد 3، الكويت ، 1982م.

المجلات والدوريات:

1. باديس لهويل ، مظاهر التداولية في مفتاح العلوم للسكاكي، مجلة رفوف ، العدد 09، عدد خاص بأعمال ملتقى المنهج التداولي ، جامعة أدرار – الجزائر، 2016م.

[1] ينظر: محمود أحمد نحلة ، آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر، دار المعرفة الجديدة، مصر ، 2002م: 33.

[2] ينظر:حافظ إسماعيل علوي، التداوليات (علم استعمال اللغة) عالم الكتب الحديث، أربد/ أردن، ط1، 2014م، 21.

[3] ينظر: الاستلزام الحواري في الدرس اللساني ، العياشي ادواري، منشورات الاختلاف ، دار الأمان ، الرباط ، ط1، 2011م : 46.

[4] فيليب بلانشيه، التداولية من اوستين إلى غوفمان، تر: صابر الحباشة، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية–السورية، 2007م: 84.

[5] ينظر: باديس لهويل ، مظاهر التداولية في مفتاح العلوم للسكاكي، مجلة رفوف ، العدد 09، عدد خاص بأعمال ملتقى المنهج التداولي ، جامعة أدرار –الجزائر، 2016م.

[6] بهاء الدين محمد مزيد ، تبسيط التداولية، شمس للنشر والتوزيع، القاهرة، ط2، 2010م، 40.

[7] ينظر: عادل فاخوري، محاضرات في فلسفة اللغة، دار الكتاب الجديد المتحدة، ليبيا/ بنغازي ،ط1، 2013م: 11.

[8] التداولية اليوم علم جديد في التواصل، آن روبول وجاك موشلار ، تر: سيف الدين دعفوس ومحمد الشيباني، دار الطليعة للطباعة والنشر، ط1، بيروت/ لبنان ، 2003م: 51. ينظر : الاستلزام الحواري دراسة تأصيلية ، عصام راضي حسون ، إشراف : جاسم عبد الواحد راهي ، جامعة كربلاء ، كلية العلوم الاسلامية ، العدد 35 ، آذار 2023م: 260

[9] ليلى كادة، المكون التداولي في النظرية اللسانية العربية ظاهرة الاستلزام التخاطبي نموذجا، أطروحة مقدمة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في علوم اللسان العربي، إشراف د: بلقاسم دفة ، جامعة الحاج لخضر، باتنة، د ت، 118.

[10] عياشي أدواري، الاستلزام الحواري في التداول اللساني، دار الأمان ، الرباط ، ط1، 1432هـ/ 2011م، 104.

[11] اصادق المهدي ،الفكاهة ليست عبثا، 2006م: 8

[12] شاكر عبد الحميد، الفكاهة والضحك رؤية جديدة، سلسلة عالم المعرفة، عدد 289، يناير 2003: 51.

[13] أحمد عادل عبد المولى، أصداء الخطاب ، بحوث تطبيقية في المقارنة الأدبية ، دار النابغة للنشروالتوزيع ، ط1، 2017م: 5.

[14] وديعة طه النجم، الفكاهة في الأدب العباسي ، عالم الفكر ، المجلد 13، العدد 3، الكويت ، 1982م: 28

[15] رياض قزيحة، قدم وراجع له : ياسين الأيوبي ، الفكاهة والضحك في التراث العربي المشرقي من العصر الجاهلي إلى نهاية العصر العباسي، المكتبة المصرية ، صيدا/ بيروت، شركة أبناء شريف الأنصاري للطباعة والنشر والتوزيع، 1426هـ/2006م، 83-284

[16] مصطفى البشير قط، مجالس الأدب في قصور الخلفاء، دار اليازوري العلمية، 2016م:73-83.

[17] ديوان أبي دلامة : تحقيق: إميل بديل يعقوب ، بيروت ، دار الجيل، ط1، 1994م: 75.

[18] . ديوان أبي دلامة : 44

[19] . المصدر نفسه : 35

[20] ديوان أبو دلامة: 89

[21] . ديوان أبي دلامة : 166

[22] . ديوان أبي دلامة : 64